الشيب الفجائي وسببهُ

لهج شعراء العرب والعجم بذكر الشيب الذي يفاجئُ الشبان والكهول واطبقوا على انهُ يحدث من الخوف والهم والغم وعليهِ قول بعضهم

رمى الحدثان نسوةَ آل حربٍ ... بمقدارٍ سمدنَ لهُ سمودا
فردَّ شعورهنَّ السودَ بيضًا ... وردَّ وجوههنَّ البيضَ سودا

وقول الآخر والهمُّ يخترم الجسيم نحافةً ... ويشيب ناصية الصبيِّ ويهرمُ

وذكر الكتَّاب اناسًا كثيرين باغتهم الشيب في ليلة واحدة فاشرق على مفارقهم نور الصباح بعد ان كانت مشتملة بغسق الدجى . من ذلك ان شابًّا اسبانيًّا عشق جارية من جواري فرديننذ ملك اسبانيا فرآهُ الحرس يسامرها تحت جنح الدجى فخلُّوا سبيلها وقبضوا عليهِ . فعلم انهُ مقود الى القتل لا محالة ولم يصبح عليهِ الصباح حتى شاب من الروع فرق لمتهِ فصار مثل الدَّمقس اسودها . ورآهُ الملك على هذه الحال فقال لهُ لقد نلت جزاء ما جنت يداك ثم امر باطلاقهِ

ومنهُ ان حارس كنيسة بمدريد كان عليهِ ان يقف على جناح قبتها وينشر منهُ لواء يوم دخول الامبراطور ليوبولد لتلك المدينة . وكان قد وهن العظم منهُ واشتعل الراس شيبًا فاوعز الى نفر من الشبان قائلاً من منكم يرقى لضعفي وينشر اللواء عني فازوجهُ بابنتي . فتقدم واحد منهم وكان اكرههم في عينيهِ وقال لهُ لبَّيك ياعمَّاه ثم عد الى قبة الكنيسة ونشر اللواء وكان الوقت مساء . فلما مرَّ الامبراطور بموكبهِ طوى اللواء وحاول النزول فوجد الباب الاعلى مقفلاً . وكانت الكنيسة بعيدة عن البيوت لا يمرُّ بها الناس ليلاً فأسقط في يدهِ وعلم انها مهلكة من ابي الفتاة . فقال ان انا رميت نفسي الى الارض هلكت لا محالة وان بقيت هنا الى الصباح لا دفاء ولا دثار مت بردًا ولكن قد تمهلني الحياة ففضل البقاء ولبث في القبة ولكن لم يصبح الصباح حتى اعياهُ البرد والخوف وشيبا رأسهُ . اما الفتاة فبقيت على عهد المحبة خلافًا لقول من قال

اذا شاب رأس المرء او قلَّ مالهُ ... فليس لهُ في حبهنَّ نصيبُ

ولعلها تعللت انهُ شاب في حبها فلم ترَ الشيب عارًا

وجاء ان شابًّا مشهورًا بجودة الصوت كان يشخص الا له جوبتير في احد المراسح هابطًا من السماء محاطًا بالغيوم والبروق والرعود فاختلَّت الآلات وانفصمت حبالها فسقط من علو شاهق هو ورجل آخر فمات هذا قبل ان بلغ الارض واما ذاك فعلق ثوبهُ ببعض الاسلاك

المعدنية المنصوبة في المحفل فبلغ الارض سليما ولكنهُ لم يبلغها حتى شاب كل رأسهِ وحدث ذلك امام ملك بابولي والملكة زوجتهِ وجمهور غفير من عيون المدينة وأُغمي على الملكة عندما رأتهُ هابطًا وكاد يقضي عليها

وروى بعضهم ان جنديًا من جنود بنكالا الذين جاهروا بالعصيان على الدولة الانكليزية قُبض عليهِ واتي بهِ الى امام الحكام الانكليز وفيما هم يستنطقونهُ نظر اليهِ واحد فوجد ان شعرهُ كان اسود حالكًا قد وخطهُ الشيب ثم شملهُ كلهُ في نصف ساعة والرواية مثبتة

ونحن نعرف رجلاً من اهل الفضل والوجاهة استولى عليهِ الرعب والغم وهو كهل فشاب رأسهُ في ليلة واحدة . ونعرف رجلاً آخر قال انهُ غرقت بهِ السفينة فنجا على خشبة منها ولم يبلغ البر حتى شاب رأسهُ . ولم يزَل في قيد الحياة

ومنذ مدة كانت احدى العذارى تنتظر خطيبها وهو قادم من سفر فورد اليها الخبر بغرق السفينة التي كان فيها ووجدانهُ بين الغرقى فأُغمي عليها في الحال ولبثت كذلك خمس ساعات وكان شعرها اسود مشوبًا بالصهبة فاصبح ابيض كالثلج . ولم يلبث طويلاً حتى سقط كلهُ ونبت مكانهُ شعر شائب مثلهُ اما حاجباها واهدابها فبقيت سوداء كما كانت

ومن نوادر الشيب الفجائي حدوثهُ في جانب واحد من الراس . فقد روى بعضهم ان رجلاً ارلنديًا من الذين خرجوا على الحكومة الانكليزية اتى قائدًا انكليزيًا يستأمن منهُ فقبض عليهِ الجنود قبل ان رأى القائد وتهددوهُ بالقتل فشاب جانب من راسهِ وبقي الجانب الآخر على حالهِ. وروى آخر ان فتاة كانت مخطوبة ففرأت في احدى الجرائد ان خطيبها تزوج أُخرى غيرها فساءها الامر ولبثت تأمل في نكثهِ عهود المحبة ليلها كلهُ ولما اصبحت التفتت الى المرآة فوجدت نصف شعرها ابيض كالثلج والنصف الآخر اشقر على حالهِ

واختلف العلماء في صحة الشيب الفجائي وفي تعليلهِ فانكرهُ بعضهم وفي جملتهم السير ابراهموس وامن المشهور بامراض الجلد . ثم رأى الفتاة التي غرق خطيبها والظاهر انهُ كان يعرفها قبل ان شابت فآمن بصحة الشيب الفجائي ولكن اشكل عليهِ تعليلهُ فنسبهُ الى فعل كهربائي او كيماوي يغير كيفية الدم بغتة فترسب منهُ املاح الكلس في الشعر وتبيضهُ ولكنهُ لم يقطع بصحة هذا التعليل ولا رجحهُ . وذهب فوكولين من قبلهِ الى انهُ يفرَز من الدم سائل حامض في مثل هذه الحال فيدخل الشعر ويزيل لونهُ بفعلهِ الكيماوي . والفولان ضعيفان جدًا كما لا يخفى ولم نطّلع على اقوى منهما . ولم تزل علاقة الخوف والهم والغم بهذا الشيب في حيز الغموض وعلى علماء العصر المقبل ان يزيحوا عنها الستار